المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

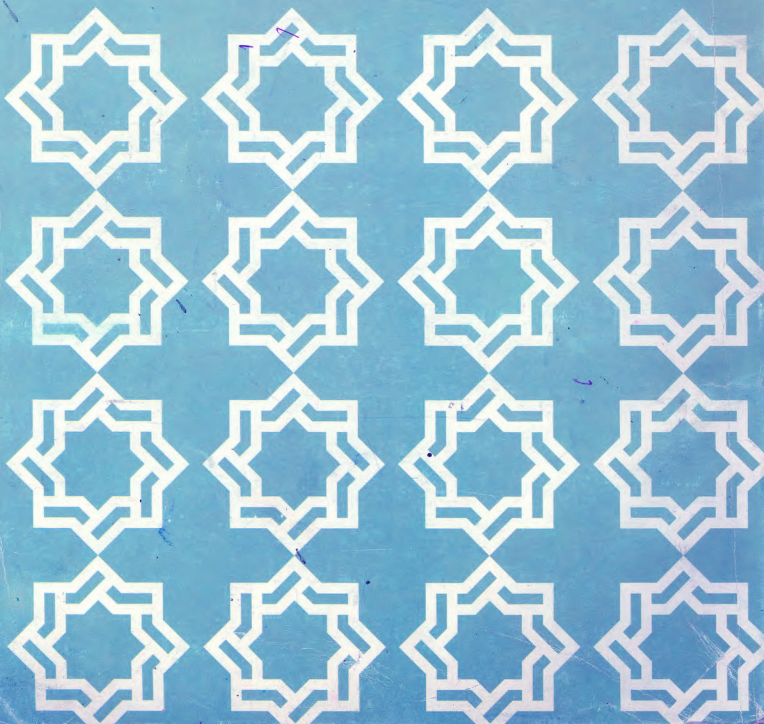

ادب الرحلات عند العرب في المشرق

أساليبه وصوره الفنية

من القرن الثالث حتى نهاية القرن الثامن الهجري

بقلم
علي محسن مال‌الله
ثانوية العطيفية للبنين ـ بغداد

مما لاشك فيه ان أساليب الرحلات ، تتباين قوة ، وضعفا نظرا للادوار الزمنية التي مرت بها .

فرحلة سلام الترجمان ، ورحلة ابن موسى المنجم ، لا تتعديان كونهما رحلتين جاءتا على شكل حكايات ، وقصص بدائية دونهما الرحالون المتأخرون في كتبهم ، واول من رواهما ابن خرداذبة فهما يمثلان اسلوبه ، ولكي نتعرف على هذا الاسلوب لابد ان نمثل له وهو يصف الطريق من بغداد الى الموصل قال :ـ

« من بغداد الى البردان اربعة فراسخ ، ثم الى عكبرا خمسة فاسخ .... ثم الى القادسية سبعة فراسخ ثم الى « سر من راى » ثلاثة فراسخ ثم الى الكرخ فرسخان ... ثم الى السن وبها الزاب الاصغر خمسة فراسخ ثم الى الحديثة وبها الزاب الاكبر اثنا عشر فرسخا ثم الى مدينة الموصل سبعة فراسخ »(١) . ومما تقدم يبدو بوضوح ان اسلوب ابن خرداذبة يتسم بتناول الحقائق الجغرافية تناولا علميا عول فيه على ضبط المسافات بين البلدان .

اما ما ذكر من قصص ، ورحلات فان اسلوبه في ذلك يمتاز بشيء من الخصب ، والخيال ، ولعل هاتين الصفتين تكون أكثر وضوحا في الرحلتين اللتين اشرنا اليهما(٢) .

وهما يختلفان عن رحلة السيرافي التي تمتاز باسلوب بسيط شائق يجذب القارىء ، ومما يدل على ذلك قوله في وصف احد البحار :ـ

« وربما رؤي في هذا البحر سحاب ابيض يظلل الراكب فيشرع منه لسان طويل ، رقيق حتى يلتصق اللسان بماء البحر ، فيغلي به ماء البحر مثل الزوبعة ، فاذا ادركت الزوبعة المركب ابتلعته ، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر ... وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره ... حتى يغلي كغليان القدور فيقذف مافيه الى الجزائر ... ويقذف السمك الميت الكبار ، والعظام ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم »(٣) .

وقد قلت ان هذا الاسلوب بسيط شائق ، يستهوي النفوس وتستروح له القلوب لما فيه من لمحات خيالية تجعل القارىء يتابع بشغف مايسرده السيرافي من حقائق جغرافية تتعلق بأحوال البحار لما فيها من غرابة الاخبار ، وطرافة الاعاجيب، وهي خير طراز حي لاسلوب ادب الرحلات في هذه الحقبة الباكرة ، غير ان رحلة اليعقوبي تختلف عن الرحلات السابقة ، لكون اسلوبها علميا ومبسطا ، سهل المأخذ كما يصفه بعض مؤرخي الادب(٤) ، ويذكر بعضهم ان رحلة اليعقوبي تشبه التقاسيم الجغرافية الحديثة ، حيث تقدم تفاصيل جديدة عن حقائق الجغرافية الطبيعية ، والبشرية(٥) ، الامر الذي جعل كاتبا آخر ينعته بأنه أبو الجغرافية الاسلامية(٦) .

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٩٣ ليدن ١٣٠٦هـ .
(٢) نفس المصدر انظر رحلة سلام الترجمان ص ١٦٨–١٧٠ ، انظر رحلة ابن موسى المنجم ص ١٠٦–١٠٧ .

(٣) رحلة السيرافي ص ٣٣ بغداد ١٩٦١م .
(٤) تاريخ الادب الجغرافي العربي ج١ ص ١٦١ كراتشكوفسكي القاهرة ١٩٦٥ .
(٥) جهود المسلمين في الجغرافية ص ٤٥ لنفيس احمد ترجمة فتحي عثمان . القاهرة بدون تاريخ .
(٦) الجغرافيون العرب ص ٤٦ لمصطفى الشهابي القاهرة ١٩٦٢ .

وخلاصة القول في رحلة اليعقوبي انها رحلة علمية قيمة ، وقد اصطنع منها مؤلفها اسلوبا يؤدي الغرض من الكتابة ، وهو اسلوب الايضاح ، والابانة في مقام الوصف العلمي ، والكتابة العلمية ؛ ومن ثم لا نخضع هذا الاسلوب للمقاييس أو الموازين التي تخضع لها الكتابة الفنية أو الوجدانية ، غير ان وصفه لبغداد وسر من رأى كان وصفا متسما بسمة ادبية واضحة(٧) ، اما مايرد في رحلته من بعض الابيات الشعرية فهو فيها ناظم غير شاعر(٨).

وان مجمل مانقوله في أساليب رحلات القرن الثالث الهجري ، ايجازا وتفصيلا ، انما تتصف بالبساطة في الاسلوب الذي لا يرتفع الى المراتب العليا في الادب ، لانها تمثل الجانب المبكر منه .

اما الرحلات التالية فهي تختلف اختلافا بينا عن سابقتها ، حيث تمثل انماطا مرتفعة في الاساليب الادبية ، ومن تلك الرحلات رحلة ابن فضلان الى بلاد الصقالبة التي قال فيها :ـ

« ورأيت الحيات عندهم كثيرة ، حتى ان الغصن من الشجرة لتلتف عليه العشرة منها والاكثر ، ولا يقتلوها ، ولا تؤذيهم ، حتى رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها اكثر من مائة ذراع ، وقد سقطت ، واذا بدنها عظيم جدا ؛ فوقفت أنظر اليه اذ تحرك ، فراعني ذلك ، وتأملته فاذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول ، فلما راتني سقطت عنه ، وغابت بين الشجر ، فجئت فزعا ، فحدثت الملك ومن كان في مجلسه ، فلم يكترثوا لذلك وقال : لا تجزع فليس تؤذيك »(٩) .

وليس غريبا عنا وصفه لدفن أحد ملوك الروس(١٠) وصفا رائعا حتى ان أحد الرسامين قد تأثر بهذا الوصف ، ورسم صورة لاحراق الموتى في لينغراد خلدت اسم ابن فضلان حتى الان(١١) .

وقد نعت من حقق الرحلة اسلوب ابن فضلان بأنه « من السهل الممتنع ، وبيانه من الايجاز بحيث يقع في صدرور الكتاب المنشئين ، أما رسالته من حيث المنهج فهي أشبه بالقصة ، تتماسك حلقاتها ، وأحداثها كرواية متشابكة متصل اولها بآخرها »(١٢) . وهذا قول مبالغ فيه لان ابن فضلان كثيرا ما ينتقل من موضوع الى آخر دون أن يمهد له ، غير أن رحلته تتسم برقة الاسلوب ، وجمال اللفظ ، واحسبه يختار الالفاظ اختيارا ، وينتقيها انتقاء ، وانه يسلط عدسته تسليطا مصيبا على المناظر التي رآها ، والحوادث التي عاشها ، فتأتي صوره مؤدية للمعنى في ايجاز ، ولعل ذلك يكون واضحا في النص الذي مثلنا به . وان رحلته تختلف عن رحلة ابن حوقل التي تتمتع باسلوب خال من السرد ، يمتاز بالدقة ، وقوة الملاحظة ، ومما يدل على ما نقول قول ابن حوقل :ـ

« وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الاسفار ، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار ، الى ان سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها ، وقطعت وجه الشمس على ظهرها ووصفت رجالات اهل البلدان ، واعيان ملوكها من ذوي السلطان ، واهل الامكان ، والمقدمين في كل ناحية وبلد بالاحسان ، الى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم ، والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم ، ولم استقص ذلك كراهية الاطالة المؤدية الى ملال قارئه ، ولأن الفرق في كتابي تصوير هذه الاقاليم التي لم يذكر أحد علمته ممن شاهدها »(١٣) .

وقد نعت آدم متز ابن حوقل والمقدسي بقوله « ثم جاءت كتب المقدسي ، وابن حوقل في القرن الرابع الهجري ، فكانت الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ، وكلاهما انتهت اليه اللغة وهي اكثر انصقالا ، ودقة ، واسلس انقيادا ، مما وجدها المتقدمون ، وقد استعملاها في فنهما استعمال من يمتلك ناصيتها ، وان كان ابن حوقل في ذلك اقل اظهارا لتكلف الطرافة ، والجمال من المقدسي »(١٤) .

وان كنت اذهب الى بعض ماذهب اليه الكاتب ، الا انني ارى في كلامه شيئا من المبالغة من حيث انصقال اللغة ودقتها ، واضيف الى ذلك ان ابن حوقل كان يمتلك ملكة نقدية بارعة ، وليس ادل على ما نقول من نقده لاهل الاندلس من ناحية(١٥) ،

(٧) كتاب البلدان انظر وصف بغداد ص ٢ـ٢١ ، انظر وصف سامراء ص ٢١ـ٣٣ ط ٢ ، النجف ١٩٥٧ .
(٨) نفس المصدر ص ١٢٥ـ١٢٦ .
(٩) رسالة ابن فضلان ص ١٢٧ـ١٢٨ ، دمشق ١٩٥٩ لاحمد بن فضلان تحقيق الدكتور سامي الدهان .
(١٠) نفس المصدر ١٥٦ـ١٦٥ .
(١١) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٣١ ، القاهرة ١٩٤٥ للدكتور زكي محمد حسن .
(١٢) رسالة ابن فضلان ص ٢٨ .
(١٣) صورة الارض ص ١١ . دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ لابن حوقل .
(١٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ٢ ص ٤ القاهرة ١٩٥٧م ادم متز . ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابو ريدة .
(١٥) صورة الارض ص ١٠٨ .

ولاهل جزيرة صقلية ، وما فيها من المعلمين من ناحية اخرى(١٦) .

ونجد في اسلوب ابن حوقل سمة السجع بين الحين والاخر غير انه لم يكن مفرطا فيها مما يدعو الى ملل القارىء ، والصفة الغالبة على رحلته هي معالجة الجغرافية الوصفية ، لذلك نجده في كثير من الاحيان ينزع في اسلوبه النزعة العلمية ، غير انه رحالة استطاع ان يمتلك لغة جيدة يصور بها ما وقعت عليه عيناه أو ما سمعه من الرواة .

ورحلة ابن حوقل تختلف عن رحلة المقدسي ، من حيث الاسلوب وطريقة السرد ، وقبل ان نتحدث عن اسلوب المقدسي لابد ان نمثل له فيما يلي قال المقدسي في وصف كتابه :ـ

« ... وانفرد بفن لم يذكروه ... وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار ، ... وذكر مواضع الاخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات ، وذكر السياخ ، والصلاب، والرمال، والتلال ، والسهول ، والجبال ، والحواوير(١٧) ، والسماق ، والسمين منها ، والرقاق ، ومعادن السمة والخصب ... وذكر المشاهد ، والمراصد ، والخصائص ، والرسوم ، والممالك والحدود ، والمصادر والجروم(١٨) ، والمخاليف(١٩) ، والزموم(٢٠) ، والطساسيج(٢١) ، والتخوم ، وعلمت انه باب لابد منه للمسافرين ، والتجار(٢٢)»

وقبل ان ندلي برأينا في هذا النص لابد ان نشير الى بعض الاراء التي قيلت في رحلة المقدسي .

فقد ذكر الدكتور شوقي ضيف ان مخيلة المقدسي من المخيلات اللاقطة التي تلتقط ماتشاهده، وتسجله مع التحقيق ، والتدقيق في الرواية ، وما ينقله من الافواه والشفاه(٢٣) .

وهذا رأي لا نؤيده كل التأييد ، لان رحلة المقدسي فيها كثير من الخرافات والاعاجيب(٢٤) .

ويصف كاتب آخر رحلته بانها من الكتب الادبية الجميلة لما احتوت عليه من اسلوب رصين ، وعبارة رقيقة ، وتعبير دقيق(٢٥) . ورأينا في هذا القول لا يختلف عن الرأي السابق .

والحقيقة ان المقدسي كان رجلا متمكنا من لغته ، فكانت الالفاظ تنقاد اليه انقيادا ، فيتلاعب بها كيفما يريد ويشاء ، غير ان هذه الالفاظ كانت متسمة بالعمق والغرابة ، ولعل ما اشرنا اليه قبل قليل يدعم صحة هذا الرأي ، ونضيف الى ذلك ان اسلوبه يتصف بالسجع المصنوع ، والممل غالبا ، ولكن بالرغم من هذه المآخذ لا يستطيع انسان ان يغمطه نصيبه من الفهم ، والذكاء ، ولا يعترف له بالاصالة والطرافة ، وقوة الملاحظة ، لذا يجب اعتباره جغرافيا عظيما من كبار العرب قاطبة(٢٦) وذلك في رأينا بالنسبة للحقبة الزمنية التي عاشها .

ومن الرحلات التي نحن بصددها رحلة ابي دلف التي اكثر فيها من ذكر المناطق ، والمدن ، بالاضافة الى مختلف المعادن ومنها وصفه لمدينة جرجان حيث قال :ـ

« وجرجان مدينة حسنة على واد عظيم في ثغور بلدان السهل ، والجبل والبر ، والبحر ، وبها النخل ، والزيتون ، والجوز والرمان ، وقصب

---

(١٦) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(١٧) الحواوير : المنحدرات ، لسان العرب باب الراء فصل الواو .

(١٨) الجروم : مفردها جرم : الارض الحارة / لسان العرب باب الميم فصل الجيم .

(١٩) المخاليف : مفردها مخلاف وهي الكور وكثيرا ما يقع في كلام اهل اليمن وغيرهم / معجم البلدان . الباب الثالث من تفسير الالفاظ .

(٢٠) الزموم : مفردها زم ، ماء بين العذب والمالح ، أو الارض المبشبة . / لسان العرب . باب الميم فصل الزاء .

(٢١) الطساسيج : مفردها طسوج : ينقسم الرستاق الى طساسيج وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى . واكثر ما تستعمل هذه اللفظة في سواد العراق / كتاب البلدان ص ٨٩ .

الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى . ولا يقال للمدن كالبصرة وبغداد / معجم البلدان الباب الثالث من تفسير الالفاظ .

(٢٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٢ . ليدن ١٩٠٦م للمقدسي .

(٢٣) الرحلات ص ٨ ، القاهرة ١٩٥٦م للدكتور شوقي ضيف.

(٢٤) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٢-١٣ .

(٢٥) الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٥٣ .

(٢٦) تاريخ الادب الجغرافي العربي ج ١ ص ٢١٥ .

السكر ، والاترج ، وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه ، وبها اشجار كثيرة الخواص ، عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ، ولا ضرر بها »(٢٧) .

ونجد في رحلة ابي دلف من خلال هذا النص ، والنصوص التي درسناها مسحة ادبية ، غير ان ابا دلف لم يحلق فيها الى مراتب الادب العليا ، بالرغم من كونه شاعرا ، لانه حشد فيها قائمة طويلة من أسماء المدن ، والمعادن التي جعلت الرحلة اقرب الى تقويم احصائي لهاتين الناحيتين .

ورحلة ابي دلف تختلف عن رحلة البغدادي الذي نهج فيها نهجا متباينا عن سلفه ، ولكي نتبين وجوه الاختلاف نذكر نموذجا للبغدادي فيما يأتي:ـ

قال البغدادي متحدثا عن حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة وهي التي وقعت في مصر .

« ... ورايت مع امراة فطيما ... فاستحسنته ، واوصيتها بحفظه ، فحكت لي انها بينما تمشي على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فارس ، وطرده عنها ، وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه ان يأكله ، وان الولد بقي مدة مريضا لشدة تجاذبه المراة والمفترس ، ونجد اطفال الفقراء ، وصبينانهم ممن لم يبق له كفيل ، ولا حارس منبثين في جميع اقطار البلاد ، وازقة الدروب ، كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ، ونساؤهم ، يتصيدون هؤلاء الصغار ، وينفذون بهم »(٢٨) .

وقبل ان نحكم على هذا النص لابد ان نستانس ببعض الاراء التي قيلت في اسلوب البغدادي . فقد نعته ابن ابي اصيبعة بانه كان مليح العبارة ، كثير التصنيف(٢٩) ، وانه « العالم العراقي البارع ذو القريحة المنتجة الذي ترك في وصف مصر رسالة وجيزة تعد في طليعة المؤلفات الطيوغرافية(٣٠) في العصور الوسطى »(٣١) .

وان « اسلوبه من ارق الاساليب ، وله افكار عصرية غريبة ، ورغبة في الدقة ، ونزوع الى التحقيق ، مع نقائض قد يقدر عليها للزمن الذي عاش فيه »(٣٢) .

ولا نستطيع ان نذهب مع بعض الباحثين الى ان اسلوب البغدادي من ارق الاساليب ، غير اننا نقول ان اسلوبه كان جيدا ، ولعل ذلك يتضح جليا في الاسلوب الذي عالج به الحوادث الرهيبة التي حلت بالشعب المصري في سنتي ٥٩٥هـ ، ٥٩٨هـ ، واستطاع البغدادي ان يصفها وصفا جيدا ولعل النص الذي اوردناه خير دليل على ما ذهبنا اليه ، واسلوبه على العموم يميل فيه الى النزعة العلمية ، وكما لا يخلو من بعض الخرافات والاعاجيب .

وعبداللطيف البغدادي بالرغم مما يتميز به اسلوبه من سمات غير انه يختلف عن الحموي الذي كان عالما جليلا غزير المادة في الجغرافية ، كما انه كان اديبا ، ومؤرخ آداب على حد تعبير احد النقاد(٣٣) . ويعلق الدكتور زكي محمد حسن فيذكر ان ياقوتا كان يمتاز بملكة النقد التي كانت ظاهرة في روايته لبعض الاساطير الشائعة وقتئذ(٣٤) .

كما انه « كان اديبا ... واسع الافق ، وكاتبا جم النشاط ، متعدد النواحي ... ليس فقط في غزارة مادته ، وتنوعها بل ايضا في منهجه المستقل الذي ينطوي على الذكاء ، أما هو نفسه فيمكن اعتباره من أبرز رجالات عصره خاصة في هذا الفرع من الادب ... وما يزال معجمه الى ايامنا

(٢٧) رسالة ابي دلف الثانية ص ٨٧ـ٨٨ ، القاهرة ١٩٧١م . تحقيق الدكتور محمد منير مرسي .

(٢٨) الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة ، والحوادث المعاينة بأرض مصر القاهرة ١٩٣٤ . لعبداللطيف البغدادي . نشر سلامة موسى .

(٢٩) عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ٣ ص ٣٣٠ . بيروت ١٩٥٧م .

(٣٠) الطبوغرافية : الوصف التفصيلي للمكان بما في ذلك تضاريسه واية ظاهرات دائمة ، سواء اكانت طبيعية أو من صنع الانسان / معجم المصطلحات الجغرافية ص ٣٣٠ القاهرة ١٩٦٤م ، الدكتور يوسف توني .

(٣١) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٧٨٣ بيروت ١٩٦٥م . فيليب حتي .

(٣٢) الافادة والاعتبار ص ٣ .

(٣٣) ياقوت الحموي ، سلسلة اعلام العرب ص ٨٢ ، القاهرة ١٩٧١م لابي الفتوح محمد التوانسي .

(٣٤) الرحالة المسلمون في القرون الوسطى ص ١٠٦ .

هذه يخدم غرضه ، ويلعب دوره كمرجع موثوق به، مما يقف برهانا ساطعا على اهميته التي لاتضارع »(٣٥) . ولكي ندلل على تلك الاحكام التي قيلت في ياقوت نذكر نصا لكي يكون حكمنا على الرجل حكما موضوعيا ، قال ياقوت عن نفسه :ـ

« اني كنت قدمت نيسابور سنة ٦١٣هـ وهي الشاذياخ فاستطيبتها ، وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته ، واشتريت بها جارية تركية لا ارى الله تعالى خلق احسن منها خلقا وخلقا ، وصادفت من نفسي محلا كريما ، ثم ابطرتني النعمة ، فاحتججت بضيق اليد ، فبعتها ، فامتنع علي القرار ، وجانبت الماكول والمشروب حتى اشرفت على البوار ، فاشار علي بعض النصحاء بارجاعها ، فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن الى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان متمولا ، وصادفت من قبله اضعاف ما صادفت مني ، وكان لها الي ميل يضاعف ميلي اليها فخاطبت مولاها في ردها علي ، ـ فذكر ياقوت انه امتنع عن ذلك فقال قصيدة يصف فيها حاله ـ :ـ

الا هل ليالي الشاذياخ تؤوب
فاني اليها ما حييت طروب
بلاد بها تصبي الصبا ويشوقنا الـ
شمال ويقتاد القلوب جنوب
لذلك فؤادي لا يزال مروعا
ودمعي لفقدان الحبيب سكوب
ويوم فراق لم يرده ملالة
محب ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد صاد بالرحيل ولم يزع(٣٦)
عن الالف حزن او يحول كئيب
أئن ومن اهواه يسمع أنتي
ويدعو غرامي وجده فيجيب
وابكي فيبكي مسعدا لي فيلتقي
شهيق وانفاس له ونحيب
على ان دهري لم يزل مد عرفته
يشتت خلان الصفا ويريب
الا يا حبيبا حال دون بهائه
على القرب باب محكم ورقيب
فمن يصح من داء الخمار فليس من
خمار خمار للمحب طبيب
بنفسي افدي من احب وصاله
ويهوى وصالي ميله ويثيب
ونبذل جهدينا لشمل يضمنا
ويابى زماني ان ذا لعجيب
وقد زعموا ان كل من جد واجد
وما كل اقوال الرجال تصيب(٣٧)

الحق ان ياقوتا في هذه القطعة قد عبر عن نفسه تعبيرا صادقا وانه استطاع ان يصور حبه تصويرا حقيقيا لانه ذاق مرارة التجربة ، وخبرها بذاته ، لذلك تعد هذه القطعة قطعة ادبية رائعة . وبالاضافة الى ما قدمنا يصح للباحث ان يقول ان ياقوتا كان جغرافيا ، ومؤرخا ، واديبا .

وتلك الرحلات تختلف عن الرحلات العلمية من حيث الاسلوب ، فرحلة ابن بطلان(٣٨) مثلا قد صيغت باسلوب بسيط لا أثر للصنعة فيه ، لانه كان شاعرا ، الا اذا استثنينا منها المقدمة التي استعمل فيها رحالتنا بعض العبارات التي يكتنفها التكلف ، اما مساجلاته مع ابن رضوان(٣٩) فكانت مساجلات علمية منطقية فلسفية صيغت في اسلوب علمي(٤٠) .

ورحلة ابن بطلان تتميز عن رحلة البيروني تلك التي تناول فيها حياة الهنود، وثقافتهم، وديانتهم، ويعلق احد الكتاب فيذكر ان رحلته تعد ذات طابع فريد في الادب الاسلامي لكونها محاولة صادقة

(٣٥) تاريخ الادب الجغرافي العربي جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٣٦) الوزع : كف النفس عن هواها / لسان العرب باب العين فصل الواو .

(٣٧) معجم البلدان : باب السين والالف وما يليهما .

(٣٨) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري ص ١٦ـ١٧ القاهرة ١٩٣٧م . والدكتور يوسف شخت ، والدكتور ماكس مايرهوف .

(٣٩) ابن رضوان : علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطيب عالم مصري توفى في حدود ٤٠٦هـ/نفس المصدر السابق ص ١ .

(٤٠) نفس المصدر ص ٢٤ـ٣٧ ، ٤٧ـ٧١ .

لدراسة عالم وثني التفكير(٤١) . ويعلق كاتب آخر فيقول « اما اسلوبه في الكتابة فكان اسلوبا علميا الى حد بعيد موجها الى الخاصة دون العامة »(٤٢). والحق ان رحلة البويرني فيها كثير من الغموض في الاسلوب لكونها تحتوي على مصطلحات لغوية ، وكلمات اعجمية التي لا تقع تحت حصر(٤٣) . وخلاصة القول في اسلوبها انها ذات اسلوب علمي متين الا ان فيها مسحة ادبية وذلك لكون البيروني متذوقا للادب ، وناظما للشعر(٤٤) .

والرحلات التاريخية تختلف عن سابقتها لكونها تعالج نواحي قد تمت بصلة للادب من قريب أو بعيد ، فالمسعودي باعتباره من الرحالة المؤرخين ينعته نيقولا زيادة « بانه واحد من أولئك الذين أحاطوا بالمعرفة احاطة عامة حتى هضمها ، ثم دونها تدوينا جميلا باسلوب سهل ممتنع ، وانه واحد من عباقرة الفكر في القرن الرابع الهجري »(٤٥) ويصفه كراتشكوفسكي بأنه كان اديبا قبل كل شيء، وناشرا للمعارف على غرار الجاحظ ، وابن الفقيه ... وفي اسلوبه قرابة ورحم مع اسلوب الصحافة الحديثة »(٤٦) . ولكي نؤيد تلك الاقوال او نرفضها نمثل لاسلوب المسعودي الذي يقارن بين عبادة العرب قبل الاسلام ، وعبادة أهل الصين فيقول :ـ

« ان عبادتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الاسلام ، يعبدون الصور ، ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الاصنام ، والصور ، مقام الفيلة، والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الاصنام بألوهية الخالق ويعتقدهما جميعا ، وان عبادتهم الاصنام تقربهم الى الله زلفى ، وان منزلتهم في العبادة تنقص عبادة البارىء لجلالته ، وعظمته وسلطانه ، وان عبادتهم لهذه الاصنام طاعة له ووسيلة اليه »(٤٧) .

ومن هذا النص يتضح ان اسلوب المسعودي يميل فيه الى الناحية التاريخية ولا نستطيع ان ننعت اسلوبه بانه ممتنع او انه كان اديبا ، وخلاصة القول في المسعودي انه كان كاتبا مؤرخا قبل كل شيء وان اسلوبه يتسم بسمة ادبية ، ونستطيع ان نعده اديبا في الطبقة الثانية ان صح هذا التعبير .

ومن الرحلات التي تلفت نظر الباحث بهذا الصدد رحلة اسامة بن منقذ فقد وصفها الدكتور نيقولا زيادة بأنها نسيج فريد في الادب العربي(٤٨) . الا ان الباحث لا يرى هذا الراي .

وخلاصة القول في رحلة اسامة انها جاءت في اسلوب قصصي ينقصه الفن في التعبير . ويعتوره الضعف ، كما انها مملوءة بالكلمات الاعجمية التي اغنانا عن جمعها الدكتور فيليب حتي ، الا ان الرحلة تمثل بصدق الحوادث المؤلمة التي وقعت في البلاط ـ الفاطمي من ناحية ، والحروب الصليبية من ناحية اخرى ، وتوضح الفروسية العربية التي كان بطلها اسامة نفسه(٤٩) . واذا ما تابعنا النظر في اساليب الرحلات ، وتناولنا رحلة الهروي وجدنا هذا الرحالة كاتبا يقترن اسمه بكتب الزيارات التي تصح أن تكون مرشدا للزائرين(٥٠) . كما ان رحلته تحتوي على كثير من الاساطير ، والعجائب(٥١) ، وانها تمتاز بالاحاديث عن مقامات الانبياء، والاولياء، وكثيرا ما تكون تلك الاحاديث على شكل سطور مقتضبة ، باسلوب لا يتعدى اسلوب الزيارات والاوراد المعروفة لدينا . ورحلة الهروي تختلف عن

(٤١) ابو الريحان البيروني حياته ومؤلفاته ص ٨٥ مصر ١٩٦٨م لعلي احمد الشحات .

(٤٢) البيروني سلسلة اعلام العرب ص ٢٤ ، القاهرة ١٩٦٨م للدكتور محمد جمال الفندي ، والدكتور امام ابراهيم احمد .

(٤٣) في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص ٣٧ ، ٤٤ـ٤٥ طبعة الهند ، للبيروني ، ١٩٥٨م .

(٤٤) معجم الادباء جـ١٧ ص ١٨٠ـ١٩٠ . القاهرة ١٩٣٦م للحموي .

(٤٥) الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١٥٢ بيروت ١٩٦٢م نيقولا زيادة .

(٤٦) تاريخ الادب الجغرافي العربي جـ ١ ص ١٧٧ـ١٨١ .

(٤٧) مروج الذهب جـ ١ ص ١٣٦ ، القاهرة ١٩٤٨م .

(٤٨) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ص ٧٣ ، القاهرة ١٩٤٣م للدكتور نيقولا زيادة .

(٤٩) كتاب الاعتبار . ص ٢١ ، ٥٨ـ٥٩ ، ١٠٩ ، الولايات المتحدة ١٩٣٠ . لاسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور فيليب حتي .

(٥٠) تاريخ الادب الجغرافي العربي جـ ١ ص ٣٢١ .

(٥١) الاشارات الى معرفة الزيارات ص ٥٧ بيروت ١٩٥٣م للهروي تحقيق جانين سورديل .

رحلة ابن خلدون من حيث غزارة المادة . وطريقة البحث، اما اسلوبها فقد نعته الاستاذ محمد عبدالله عنان بأنه « قطعة فريدة في الادب العربي ، ورحلة ابن خلدون صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة التي رسمت في كثير من الحرية والصراحة »(٥٢) واسلوب ابن خلدون كما قال أحد الادباء « وحدة مستقلة من ابتكار رائع »(٥٣) غير أن كراتشكوفسكي علق فقال : « اما من ناحية اسلوبه الكتابي فان ابن خلدون ابعد من ان يعد نموذجا يحتذى فانه تنعكس فيه بوضوح آثار عصر التدهور التي تبدو في غلبة السجع والمحسنات البديعية ، والتشبيهات ، والاستعارات المبالغ فيها بل ان لغة ابن خلدون نفسها لم تسلم أحيانا من الالفاظ العامية ، والالفاظ المحدثة ، كما انها لا تخلو من الاخطاء النحوية ، وليس من النادر ان يحيط الغموض بعض الفاظه من وقت لآخر(٥٤) ، وقبل ان نؤيد هذه الآراء أو نرفضها او نزيد عليها نمثل لاسلوب ابن خلدون حتى نصل الى الحقيقة ، قال يصف القاهرة :ـ

« فرايت خضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسي الملك ، تلوح القصور والاواوين في جوه ، وتزهر الخوانك(٥٥) ، والمدارس يافاقه ، وتضيء البدور ، والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل ، والعلل سيحه ، ويجيء اليهم الثمرات والخيرات ثجه(٥٦) ، ومررت في سلك المدينة ، تغص بزحام المارة ، واسواقها تزخر بالنعم ... ولما دخلتها اقمت اياما ، وانثال علي طلبة العلم يلتمسون الافادة ، مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذرا فجلست للتدريس بالجامع الازهر »(٥٧) .

ومن هذا النص نستطيع ان نرد كلام كراتشكوفسكي الذي فيه شيء من التحامل على اسلوب رحالتنا باعتبار انه لا يحتذى به نظرا لكثرة السجع ، والمحسنات البديعية غير ان الجميع يعلم بأن السجع كان في وقت من الاوقات من علامات الكاتب القدير ، وبالرغم من هذا فابن خلدون نفسه انتقد صناعة الكلام(٥٨) ، ولم يكثر منه بحيث يبلغ درجة الافراط في الرحلة التي بين ايدينا . أما استعماله لبعض الالفاظ العامية فهي من الندرة بمكان . ولا يستعملها الا في محلها المناسب ، ولكونه يستعمل بعض الالفاظ المحدثة فهذا شيء لايعد نقصا ، لأن اللغة كائن حي ، تنمو ، وتتجدد .

اما كونه جاء باسلوب جديد فهذا يعد مفخرة لابن خلدون وقد قال هو عن نفسه عندما تولى وظيفة كتابة الرسائل للسلطان ابي سالم بفاس « وكان اكثر الرسائل يصدر عني بالكلام المرسل ... وانفردت به حينئذ ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة »(٥٩) .

وخلاصة القول في اسلوبه ، وان اعتيوره السجع حينا ، وخالطته بعض المحسنات اللفظية ـ في خطبه ـ أحيانا ، انه اسلوب يعد كاتبه مجددا اضاف الى اللغة العربية كثيرا من معانيه المبتكرة ، وانه امتلك ناصية اللغة ، فاتخذها مطية طيعة لافكاره ، ونظرياته ، ولعل النص الانف الذكر يؤيد صحة ماذهبنا اليه ، وبعد ذلك يعد ابن خلدون في طليعة الكتاب في القرن الثامن الهجري ، بالاضافة الى كونه شاعرا ، ومفكرا ، وعالما فذا .

---

(٥٢) ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ص ١٦١ ، القاهرة ط ٣ ، ١٩٦٥م لمحمد عبدالله عنان .

(٥٣) مجلة المعارف ، لبنان العدد ١٠ السنة الثانية ، ١٩٦٢م مقال دريد الخواجة ابن خلدون وصيرورة المجتمع ص ١١

(٥٤) تاريخ الادب الجغرافي العربي جـ ١ ص ٤٤٤ .

(٥٥) الخوانك : الخانقاه بالكاف أو بالقاف مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة / التعريف بحياة ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ١٢١ . القاهرة ١٩٥١ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي .

(٥٦) الثلج : الصب الكثير وفي القراق وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا / لسان العرب باب الجيم فصل الثاء .

(٥٧) التعريف بحياة ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٤٧ـ٢٤٨ .

(٥٨) المقدمة لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٢٧ فصل في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع . تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي . القاهرة ١٩٦٨م .

(٥٩) التعريف بحياة ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٧٠ .

مصادر البحث

١ ـ ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ط ٣ . القاهرة ١٩٦٥م .	لمحمد عبدالله عنان
٢ ـ ابو الريحان البيروني حياته ومؤلفاته . القاهرة ١٩٦٨م .	علي احمد شحات
٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ليدن .	للمقدسي
٤ ـ الاشارات الى معرفة الزيارات . بيروت ١٩٥٣م .	للهروي تحقيق حانين سورديل
٥ ـ الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . القاهرة ١٩٣٤م .	لعبد اللطيف البغدادي نشر سلامة موسى
٦ ـ البيروني . سلسلة اعلام العرب . القاهرة ١٩٦٨م .	للدكتور محمد جمال الفندي والدكتور امام ابراهيم احمد
٧ ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي جـ ١ . القاهرة ١٩٦٥م .	لكراتشكوفسكي
٨ ـ تاريخ العرب مطول جـ ٣ . بيروت ١٩٦٥م .	للدكتور فيليب حتي وجماعته
٩ ـ التعريف بحياة ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . القاهرة ١٩٥١م .	لابن خلدون . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي
١٠ ـ الجغرافية والرحلات عند العرب . بيروت ١٩٦٢م .	للدكتور نيقولا زيادة
١١ ـ الجغرافيون العرب . القاهرة ١٩٦٢م .	لمصطفى الشهابي
١٢ ـ جهود المسلمين في الجغرافية . القاهرة . بدون تاريخ .	لنفيس احمد ، ترجمة فتحي عثمان
١٣ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ . القاهرة ١٩٥٧م .	لادم متز . ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابو ريدة .
١٤ ـ خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري . القاهرة ١٩٣٧م .	تحقيق الدكتور يوسف شخت والدكتور ماكس مايرهوت
١٥ ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥م .	للدكتور زكي محمد حسن
١٦ ـ الرحلات . القاهرة ١٩٥٦م .	للدكتور شوقي ضيف
١٧ ـ رحلة السيرافي . بغداد ١٩٦١م .	للسيرافي . تحقيق علي البصري
١٨ ـ رسالة ابن فضلان . دمشق ١٩٥٩ م .	لاحمد بن فضلان . تحقيق الدكتور سامي الدهان
١٩ ـ رسالة ابي دلف الثانية . القاهرة ١٩٧١م .	تحقيق الدكتور محمد منير مرسي
٢٠ ـ رواد الشرق العربي في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٣م .	للدكتور نيقولا زيادة
٢١ ـ صورة الارض . دار مكتبة الحياة . بيروت . بدون تاريخ .	لابن حوقل
٢٢ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء جـ ٣ . بيروت ١٩٥٧م .	لابن ابي اصيبعة
٢٣ ـ في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . الهند . الدكن . ١٩٥٨م .	للبيروني
٢٤ ـ كتاب الاعتبار . الولايات المتحدة ١٩٣٠م .	لاسامة بن منقذ . تحقيق الدكتور فيليب حتي .
٢٥ ـ كتاب البلدان جـ ٣ . النجف ١٩٥٧م .	لليعقوبي
٢٦ ـ لسان العرب .	لابن منظور
٢٧ ـ مجلة المعارف . لبنان . العدد العاشر السنة الثانية ١٩٦٢م . ابن خلدون وصيرورة المجتمع.	مقال بقلم دريد الخواجة
٢٨ ـ مروج الذهب جـ ١ . القاهرة ١٩٤٨م .	للمسعودي . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
٢٩ ـ معجم البلدان . مطبعة السعادة ط ١ . القاهرة ١٩٠٦م .	للحموي
٣٠ ـ معجم المصطلحات الجغرافية . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٤م .	للدكتور يوسف توني
٣١ ـ ياقوت الحموي . سلسلة اعلام العرب . القاهرة ١٩٧١م .	لابي الفتوح محمد التوانسي